عرض كتاب

المهدي والمهدوية على المسكوكات الإسلامية، دراسة تاريخية لأثر فكرة المهدي المنتظر على النقود في العصر الإسلامي

محمد عبد الستار عثمان

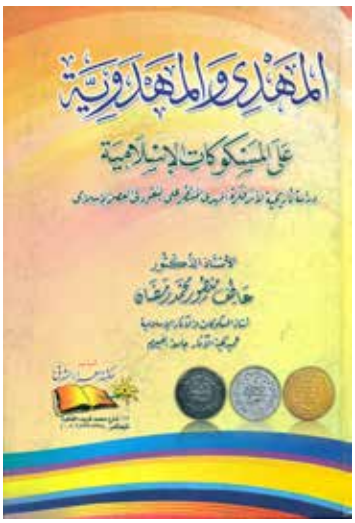

عنوان الكتاب: المهدي والمهدوية على المسكوكات الإسلامية،

دراسة تاريخية لأثر فكرة المهدي المنتظر على النقود في العصر الإسلامي.

المؤلف: عاطف منصور محمد رمضان.

دار النشر: مكتبة زهراء الشرق – القاهرة.

سنة النشر: ٢٠١٣م.

الترقيم الدولي: ١-٤١١-٣١٤-٩٧٧-٩٧٨.

عدد الصفحات: ٦٩٥ صفحة.

عدد اللوحات: ١٠٨.

المقاس: ١٧× ٢٤.

يتناول هذا الكتاب فكرة المهدي والمهدوية في إطار انعكاسها على نقوش المسكوكات في العصر الإسلامي. والمسكوكات الإسلامية تتنوع ما بين دنانير ذهبية ودراهم فضية وفلوس نحاسية وبرونزية، وتحدد قيمتها النقدية في إطار الظروف الاقتصادية في العصور التي تضرب فيها، أما قيمها الشرعية وبخاصة السائدة في التعامل الشرعي منها وهي الدنانير والدراهم فإنها ثابتة في وزنها وعيارها، وهذا الثبات في إطار استخدامها في المعاملات المرتبطة بالحدود والعبادات الشرعية.

وإذا كانت المسكوكات الإسلامية تلعب وظيفتها الرئيسة في المعاملات النقدية والاقتصادية والتجارية باعتبارها أداة التعامل التي استقر عليها الإنسان، واستمرت كذلك في العصر الإسلامي، فإن لها وظائف أخرى مهمة، ومن أهمها أنها كانت من شعارات السلطة والحكم، كما أنها في إطار هذا التوظيف كانت مجالاً خصبًا وأساسيًا في النشاط الدعائي السياسي المرتبط بالأوضاع السياسية والاقتصادية والإعلامية للدول الإسلامية ارتباطًا واضحًا لاسيما أنها تتمتع بخاصية التداول المستمر مما يجعلها من أسرع وسائل الإعلام والإعلان في هذه العصور، وأكثرها انتشارًا. ومن هنا أدرك الباحثون أهمية المسكوكات الدعائية السياسية إدراكًا أخذ تيارًا واضحًا في البحث في الآثار الإسلامية متضامنًا مع دراسة غيره من المواد الأثرية التي لعبت أدوارًا مهمة أيضًا في هذا المجال، كالمنشآت المعمارية، والكتب والمراسيم الحجرية وغيرها.

وكتاب المهدي والمهدوية على المسكوكات الإسلامية أول كتاب يصدر باللغة العربية تبنَّي دراسة فكرة المهدي والمهدوية على المسكوكات في إطار تاريخي واضح معتمد على قراءة شاملة وعميقة لكثير من المصادر التراثية الأدبية بأنواعها المختلفة، ومعتمدًا أيضًا في الجانب الآخر على دراسة متخصصة لنقوش المسكوكات بأنواعها المختلفة. وإذا كانت فكرة المهدي والمهدوية في العصر الإسلامي قد شغلت كثيرًا من الباحثين في التاريخ الإسلامي والمهتمين بالظواهر الفكرية والعقائدية في مراحلها المختلفة، فإن جل هذه الدراسات تنبه إلى أهمية المسكوكات كمصدر أساسي في إثراء دراسات هذه الفكرة والبحث فيها. كما أنها لم تدرك أهميتها كمعيار لقياس وتقويم ونقد ما يرد في المصادر الأدبية والتأكد من صحته وسلامته،

ومن ثم تبرز أهمية هذه الدراسة باعتبار اعتمادها على المسكوكات كمصدر مهم يتسع ليكون أيضًا معيارًا لقياس المصادر الأخرى عليه باعتبار أن المسكوكات وثائق مادية رسمية في المقام الأول، وهو اعتبار تكتسبه من وظائفها التي سبقت الإشارة إليها.

وتقديم قراءة آثارية تاريخية لكتاب المهدي والمهدوية ينطلق من عدة اعتبارات مهمة؛ منها:

١) إن المسكوكات الإسلامية مصادر أساسية لدراسة الدعاية السياسية للدول في العصر الإسلامي، وهذه حقيقة تستوجب البحث والدرس ووضعها في الاعتبار عند البحث في المسكوكات الإسلامية.

٢) إن البحث في مجال الدعاية السياسية في إطار توظيف المسكوكات كمصدر مهم لهذا المجال يرتبط بمجالات أخرى في دراسة المسكوكات؛ كالوزن والعيار والنقوش الكتابية والمصورة، بل وأحيانًا الشكل العام للقطع المسكوكة، وكذلك خطة ترتيب نقوشها على وجه القطعة أو ظهرها.

٣) إن البحث في المجال السياسي الدعائي للمسكوكات لا ينحصر في مجال المسكوكات، ولكنه يمكن أن يتسع ليشمل فروع الآثار الإسلامية الأخرى؛ كالعمارة والفنون التطبيقية وغيرها، بل إنه يتسع أكثر وأكثر ليشمل مجالات البحث الشامل للفكرة والمعتقدات الإسلامية.

٤) إن المسكوكات الإسلامية في إطار ما سبق عرضه من أهميتها لدراسة البعد السياسي الدعائي تشكل رافدًا مهمًا في دراسة روافد الدعاية السياسية على الآثار الإسلامية بصفة، وهي الدعاية التي كانت الآثار المادية أدواتها إعلامًا وإعلانًا ابتداءً من المسكوكات ذاتها وامتدادًا إلى العمارة والفنون الجرافيكية إلى الفنون التطبيقية التي وظفت لهذا الغرض. ومن ثم فإن هذه الروافد تمثل كنزًا معرفيًا يمكن من خلاله التوسع في دراسة الأبعاد التعبيرية والدعائية والسياسية الإعلامية والإعلانية كبعد مهم في دراسة الآثار الإسلامية.

من هذا المنطلق تبدو أهمية هذا الكتاب الذي تقدم له قراءة آثارية وتاريخية. وقد حدد المؤلف توجهه تحديدًا واضحًا في العنوان، وعكست صياغة العنوان هذا التحديد بوضوح، فهي تبحث في "المهدي" و"المهدوية" تطبيقًا على المسكوكات من منظور تاريخي يركز على أثر فكرة المهدي المنتظر على النقود في العصر الإسلامي والجزء الرئيسي في العنوان "المهدوي والمهدوية على المسكوكات الإسلامية" واضح. والجزء التفصيلي الفرعي الذي يشير إلى أن هذه الدراسة "دراسة تاريخية لأثر فكرة المهدي على النقود" محددًا الاتجاه الباحث تحديدًا نوعيًا يركز على أن ما ورد على المسكوكات مرتبطًا بفكرة المهدي والمهدوية كان أثرًا لها وهو تحديد يقيد الرؤية الواسعة التي جاء بها الطرح في القسم الأول من العنوان. ولكن لم يمتد هذا الأمر لنظم خطة الكتاب التي التزمت الرؤية الواسعة الشاملة باعتبار أن المسكوكات كانت وسيلة دعائية لنشر هذه الفكرة في إطارات توجهاتها في كل عصر ارتباطًا بظروفه التاريخية والجغرافية.

وقد بدأت دراسة الباحث بتمهيد عن المهدي والمهدوية بين الرفض والتأييد في ضوء رأي ابن خلدون وابن الصديق، وهو تمهيد مهم لكنه يطرح تساؤلاً مهمًا عن سبب اختيار هذين المؤلفين تحديدًا، ويجيب على هذا التساؤل متن عرض الباحث لمن يدرك جيدًا سياق العرض ومكانة ابن خلدون تحديدًا. وورد ابن الصديق على ما طرحه ابن خلدون بشأن الفكرة.

وقسم الباحث كتابه إلى أربعة أقسام؛ الأول منها خصصه لدراسة المهدي والمهدوية على النقود في عصر الخلافة الأموية، وعرض بالتفصيل وفي إطار بحثي محدد ومرتبط بسياق عنوان البحث للقحطاني المنتظر عبد الرحمن بن محمد بن الأشعب، ثم عرض لمهدي المرجئة الحارث بن سريج، ومهدي الجاحية عبد الله بن معاوية في تراتب زمني يبدأ من سنة (٨٠ هـ/ ٦٩٩م) إلى سنة (١٣٠هـ/ ٧٤٨م)، وهو تراتب له أهمية حتى يشير بطريقة مباشرة مؤكدة إلى وجود الفكرة وتوظيف المسكوكات للدعاية لها كأداة إعلامية إعلانية، بل إنه يبرز نشأتها في العصر الأموي تلك النشأة التي تطورت في العصور اللاحقة.

والقسم الثاني عرض لفكرة المهدوية على نقود الخلافة العباسية، ويلاحظ أن هذا العرض تناول بشيء من التفصيل كل ما ورد بخصوص فكرة المهدي والمهدوية في العصر العباسي بكل مصادره الأدبية بنوعياتها المختلفة والمادية ممثلة في المسكوكات الإسلامية. وهذا القسم يشتمل على ثلاثة عشر مبحثًا تناقش الفكرة وتوظيفها كفكرة دعائية سياسية استغلت لدعم الدعوة العباسية

بشعاراتها ومراحل ثوراتها، ثم تنتقل إلى دراسة فكرة المهدوية على مسكوكات الخلافة العباسية. وتختص بدراسة مسكوكات الخليفة المنصور والمهدي والهادي والرشيد والمأمون، وكيفية ارتباط الأحداث في عصرهم بتوظيف الفكرة لدعم الوضع السياسي للدولة العباسية وكسب ولاء الشيعة.

ويوضح الباحث في هذا العرض ارتباط ألقاب الخلفاء المذكورين أنفسهم بالفكرة في دليل واضح على تبني الفكرة وتوظيفها، وهذا العرض كان من المهم أن يبلور بوضوح أن فكرة المهدي والمهدوية رغم ارتباطها بالعدل انطلاقًا من الدين إلا أن توجهها كان سياسيًا في المقام الأول. وتأكد هذا الأمر من خلال ما ورد في دراسة ما يخص مستوى "الخلفاء" واتسع ليشمل فكرة المهدية لتشمل ولاية العهد وهو توسع يؤكد التوجه السياسي المشار إليه.

وفي القسم الثالث عرض الباحث لفكرة المهدي والمهدوية على نقود العلويين وعرض تحديدًا للمهدي محمد بن عبد الله النفس الزكية، والمهدي الحق أمير المؤمنين (اليماني المنتظر)، والمهدي إدريس الثاني بن إدريس، وتابع علاقة فكرة المهدوية بمنصور اليمن إبراهيم بن موسى بن جعفر، والمهدية وثورة الحسين الكواكبي، والمهدية ودولة العلويين في طبرستان، وكذلك دولتهم في هوسم– مهدي بن جعفر، والمهدية وبنو الرس في صعدة، والمهدية والأشراف الحسنيون في المغرب، ومهدي السودان محمد بن أحمد بن عبد الله. وهو عرض يتسع زمنيًا للفترة الممتدة من ١٤٥(هـ/ ٧٦٢م) حتى (١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م)، أي لأحداث العصور الإسلامية من منتصف القرن الثاني الهجري حتى مطلع القرن الرابع عشر الهجري.

وهذا الإطار الزمني الممتد يؤكد استمرارية فكرة المهدي والمهدوية وتبني العلويين لها باعتبار اتصالها المباشر فكريًا واعتقاديًا بتوجههم الديني.

وبنفس الرؤية عرض الباحث في القسم الرابع للمهدي والمهدوية على نقود الشيعة وصال وجال وأسهب وأطنب في دراسة مسكوكات الشيعة الإسماعيلية، وكذلك الشيعة الاثنا عشرية، وكان مسحه شاملاً وعرضه شافيًا لكل القضايا المرتبطة بالشيعة الإسماعيلية ودعوتهم ودولتهم وعاصمتهم الأولى إلى حين ظهور الإمام القائم وبنفس المنهجية عرض لنفوذ الأئمة الاثنا عشرية بما تعكسه من صدى فكري ومعتقدي مرتبطة بالمهدي والمهدوية أيضًا.

وهذا الارتباط اتضح تمامًا في توظيف الفكرة لتحديد ترتيب الأئمة وعددهم في كل مذهب من المذهبين وحل مشكلة تتابع الأئمة ووراثتهم للإمامة، تلك المشكلة المرتبطة بتحديد من هو المهدي المنتظر، ومتى يعود كفكرة أساسية في كل من المذهبين الإسماعيلي (سبع أئمة)، والاثنا عشري (اثنا عشر إمامًا).

وفي القسم الخامس يعرض الباحث لتوظيف الخوارج لذات الفكرة وغيرهم من الفرق الأخرى، وهو ما يعني أن فكرة المهدي لم تكن حكرًا على أحد، ولكنها فكرة عامة تنطلق من تحقيق العدل كهدف نهائي يمكن أن يتبناها من يرى فيها وسيلة لتحديد أهدافه دعائيًا وسياسيًا في المقام الأول.

وفي هذا القسم عرض الباحث لفكرة المهدية على نقود المقنع الخراساني، والمهدي علي بن محمد صاحب الزنج والإمام شمس شريعة الإسلام (بنو مهدي في اليمن) والأموي المنتظر الملك الأيوبي المعز إسماعيل بن طغتين والإمبراطور المغولي الهندي جلال الدين أكبر، وهو عرض يكشف اختلاف عصوره الزمنية التي تبدأ من منتصف القرن الثالث الهجري (٢٥٥هـ/ ١٦٠٥م) عن توجهات المهديين الذين عرضهم وأساليبهم في توظيف الفكرة توظيفًا سياسيًا دعائيًا يرتبط بظروف عصرهم وثقافات بيئاتهم ارتباطًا واضحًا، وهو ما يبرز أهمية البعد المقارن لذلك، وهو بعد كان يمكن أن ينال تفصيلاً أكبر ودراسة أعمق، وهو ما يمكن أن تتبناه دراسات لاحقة باعتبار أن هذا الكتاب يمثل التمهيد الأساس لفتح باب البحث والدرس في هذا المجال. ومن جهة أخرى يكشف عن الأساليب الدعائية على تطويع الفكرة لأغراض سياسية مختلفة.

والقسم السادس والأخير خصصه الباحث للمهدي والمهدوية على النقود في المغرب والأندلس، وعرض فيه لنقود الخليفة الأموي الأندلسي محمد المهدي بالله، والمهدي بالله محمد بن إدريس حاكم بني حمود ومهدي الموجرين ابن تومرت الذين كان لمهديته أثرها المباشر في صياغة نقوش النقود الحفصية، ونقود القاضي عياش في سبته، ونقود بني نصر بالأندلس، وهو ما يكشف عن أثر الفكر والمفكرين في صياغة فكرة المهدية في إطار أبعاد ذاتية، ثم عرض لنقود مهدي غرب الأندلس أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسي، ولنقود الهادي الماس محمد بن عبد الله بن حمود والدعي الحفصي المهدي بن مرزوق بن أبي عمارة والمهدي أبو محلى أبو العباس أحمد

بن عبد الله. وهذا العرض غطى زمنيًا فترة تمتد من نهاية القرن الرابع الهجري (٣٩٩هـ/ ١٠٠٩م) وحتى الربع الأول من القرن الحادي عشر الهجري (١٠٢٢هـ/ ١٦١٣م).

وهذا الإطار الزمني المتسع لفكرة المهدي والمهدية والتي تبدأ من القرن الثاني الهجري، وتمتد حتى مطلع القرن الرابع عشر الهجري، وانتشار هذه الفكرة في مناطق جغرافية متنوعة من العالم الإسلامي شرقًا ووسطًا وغربًا وتبني المذاهب الإسلامية المختلفة لها في إطار التوظيف السياسي الملامس للبعد الديني الموظف للاستقطاب السياسي في المقام الأول يبرز جهد الباحث الذي غطى كل هذه الفترات تغطية شاملة تبرز فكرة المهدية في إطارها العام وتفصيلها وتبنيها من قبل كل هؤلاء الأفراد والدول لتحقيق غايات دعائية سياسية اتخذت من المسكوكات أداة دعائية أساسية لها.

ولا شك أن الباحث يتمتع بمقدرة وملكة واضحة على استنطاق النص المصدري وربطه بالنقوش على المسكوكات ربطًا علميًا دقيقًا يحقق له هدفه الواضح في دراسة فكرة المهدية على المسكوكات. وهو ما تحقق بالفعل في إطار ما عرض وما سخت به المصادر وقطع المسكوكات التي عثر عليها حتى الآن، وإن كان هناك من إضافات في المستقبل مع كشف مصادر جديدة ومسكوكات جديدة فإن هذا أمر محتمل وارد، وقد وضع له الباحث نهجًا واضحًا يوصل إلى دراسته بيسر، فالطريق أصبح بعد هذه الدراسة ممهدًا غاية التمهيد.

وقراءة هذا الكتاب فيها ما يمكن اعتباره مؤشرًا مهمًا لمراجعة توجهات البحث في الآثار الإسلامية بصفة عامة وفي المسكوكات على نحو خاص، ومنها أيضًا أنها تبرز صحة ما انتهت إليه مؤشرات البحث الآثاري، والتي انتهت إلى أهمية معرفة ثقافة عصر الأثر الذي تدرس معرفة شاملة من خلال المصادر الأثرية والتاريخية والأدبية والدينية والتقنية التي يزخر بها التراث العربي والإسلامي، والمعرفة بهذه المصادر والاطلاع عليها وسبر غور نصوصها ومعرفة مكنونها أمر جد مهم لمعرفة البيئة الثقافية التي وجد فيها الأثر ابتداءً من إبداعه واستمرارًا مع استخدامه وتطويره أو تعديله في عصور لاحقة إذا كان يقبل ذلك كالمنشآت المعمارية.

واتساع النطاق الجغرافية والإطار الزمني للحضارة الإسلامية يستتبع لتحقيق ذلك جهدًا أكبر ومعرفة أكثر وتعمقًا كبيرًا في القضايا، وربط ما يقبل من أطرفها الربط، وفصل ما يمكن أن يفصل بعدًا عن الخلط أو التداخل.

وتتبع قضية فكرية عقائدية سياسية دعائية في الإطار السلطوي وأحيانًا في الإطار المجتمعي العام يزيد صعوبة الدرس والبحث والاستقصاء، ولكن من يمتلك أدوات بحثه ويعرف منهجه وتكفي معرفته تجد في مغالبة الصعاب متعة لا يدانيها متعة لاسيما أن وصول الباحث إلى مبتغاه وتحقيق هدفه هو أسمى المتع عنده، وهي المتعة التي يحس بها القارئ عندما يقطفه ثمار هذا الجهد قطفًا يرى شغفه لمزيد من العلم والمعرفة، ومعرفة حلول مشكلات مثارة وقضايا شائكة يكتنفها غموض ويحيط بها لبس.

كل هذا وغيره يبرز أهمية كتاب المهدي والمهدوية، وأهمية تعريف القارئ به وبمضمونه ومنهجه وإيجابياته أو صفاته إن وجدت في إطار مراجعة علمية لهذا الكتاب.

وهذه القراءة التي بين أيدينا تنتهج نهجًا خاصًا، فبالرغم من أنها تتبع النهج المتعارف عليه في مراجعة الكتب، فإنها تتأثر إلى حدٍّ كبير بالبعد الذاتي الخاص بتوجهات الباحث من جهة، وبتوجه المراجع أيضًا من جهة أخرى؛ حيث إن قضايا الفكر العقائدي والديني والمذهبي وعلاقتها بدراسة الآثار الإسلامية مثلت في الآونة الأخيرة اتجاهًا بحثيًا آخذًا في التعمق والقوة، لاسيما أن نتائجه تجيب عن أسئلة حائرة، وتزيل اللبس عن أمور شائكة وغامضة مرتبطة بدراسة الآثار الإسلامية سواء في بعدها الوظيفي أو بعدها الفني الشكلي المتأثر بتوجهات المستشرقين الذي بدأوا دراسة الآثار الإسلامية من منظور الشكل الفني في إطار توجهاتهم البحثية لمتخصصين في تاريخ الفن، وهو اتجاه مرتبط في الحقيقة بثقافتهم. كما أن دراسة الآثار الإسلامية في إطار الربط بين الشكل والمضمون وبخاصة في دراسة النقوش الكتابية الواردة على هذه الآثار، وكذلك العناصر والتكوينات الزخرفية، ودراسة المضمون تحديدًا برؤى منهجية مفصلة مكن في الحقيقة الباحثين، ومن بينهم صاحب كتابنا موضوع المراجعة من الاستقصاء والتحليل والربط والمقارنة، واستخدام أدوات مختلفة في البحث تناسب سياقه ومحاوره، وهذه الدراسة بهذا التوجه كانت في الحقيقة مدخلاً مناسبًا لطرح موضوع الكتاب، وهو قضية المهدي والمهدوية كفكرة حادثة في إطار المناخ السياسي منذ وفاة النبي ﷺ، واستمرارًا حتى الآن أو إلى أن يظهر المهدي المنتظر في آخر الزمان.

وهي قضية تاريخية بالمعنى العام، سياسية دعائية عقائدية بالمعنى

المتخصص، مرتبطة في كل عصر بظروفه وثقافته وبيئته ارتباطًا واضحًا؛ ولذلك فإنها قضية واحدة في إطارها العام ومراحلها الزمنية متنوعة في صياغتها وأفكارها وأدواتها وأساليب الدعاية لها. تناولها المؤرخون والأدباء وغيرهم من أهل القلم بالتوثيق في المصادر المكتوبة التي لا تخلو من بعد ذاتي يبعد أحيانًا عن الحياد، ويميل هدى إلى التحيز لسبب أو لآخر، ومن ثم كان المعيار الضابط لكل هذا التراث الأدبي المكتوب والمعين على تحليله وصولاً إلى الحقيقة بعيدًا عن المزايدة أو التضليل أو الإضافة أو النقصان هو اللجوء إلى المسكوكات كمصدر مادي رسمي موثوق به.

ومن حسن الطالع أن مؤلف الكتاب من أبرز المتخصصين في مجال المسكوكات الإسلامية المتابعين لتطورات البحث منه والعارفين بكل جديد يصدر في مجال الكشف عن قطع جديدة في مواقع التنقيبات المختلفة على مستوى العالم، ومتابعة لما يعثر عليه في مجموعات في مظان وجودها، وكذلك متابعة كل ما ينشر جديدًا عنها سواء في إطار النشر العلمي أو الدراسة أو البحث، كما أن للباحث اتصالات العلمية بالجمعيات والمراكز البحثية المتخصصة في هذا المجال على مستوى العالم، وهو ما انعكس في كتابه انعكاسًا واضحًا، وبخاصة فيما يوثق به عن دراسة كل قضية بحثية متعلقة بالمهدي والمهدوية لها صدى واضح على نقوش المسكوكات كتابية أو زخرفية.

وهذه المعرفة العلمية كانت – كما أعتقد – سببًا رئيسًا لتحقيق قيمة علمية فريدة لهذا الكتاب لا تقل عن قيمة المنهج العلمي الذي اتبعه في مناقشة النقاط البحثية المتصلة بالمهدي والمهدوية في كل عصر، وفي كل نطاق جغرافي مميز مناقشة تربط بين ثقافة العصر والتراتب الزمني ومؤثرات التطور الحضاري الحادثة في كل عصر.

وهذا التناول كان له نتائجه الواضحة في تحليل النصوص الواردة في المصادر الأدبية التي جعل الباحث شاردها وواردها وزاوج بين ما هو سياسي سلطوي بحت وما هو اجتماعي عام مزاوجة كشفت عن غامض هذه النصوص، وما اعترى بعضها من هنات أو قصور أو نقص أو سوء فهم في إطار قياس على المعيار الثابت الواضح الرسمي الموثق، وهو ما ورد على المسكوكات.

وفي إطار هذا السياق تفرعت أحيانًا القضايا تفرعًا لا يحيد عن تحقيق الهدف قدر ما يغوص لسبر غور الحدث وتحليله، وفي سياق ذلك ناقش الباحث كثيرًا من القضايا والظواهر المرتبطة بالمسكوكات ذاتها وشكلها وطرق صياغة نقوشها وتنفيذها بل وشكل القوالب التي ضربت بها. ومن أمثلة ذلك ما ذكره الباحث عن نقوش المسكوكات الفاطمية الإسماعيلية، وعن الشكل المربع للدنانير الموحدية، وعلاقة ذلك بالفكر السائد والمحرك لهذا التوجه، وهو الفكر الذي يطرح قضية مهمة يجب اعتبارها عند دراسة الآثار الإسلامية بصفة عامة، وهو دور المفكرين والفلاسفة وعلماء علم الكلام في صياغة الثقافة المجتمعية صياغة تنعكس على تشكيل آثار المجتمع الذي يبني هذه الثقافة أو تلك. ولما كانت قضية "المهدي والمهدوية" أحد أبرز هذه القضايا العقائدية التي عايشها المجتمع الإسلامي في فترات تاريخه المختلفة، فإن الصيد ثمين والتطبيق على هذه الحالة تطبيقًا صحيحًا يؤكد أهمية هذه الوظيفة في البحث الآثاري بصفة عامة وفي مجال المسكوكات على وجه خاص.

كما أن البحث في القضايا المتفرعة عن المهدي والمهدوية من خلال السرد التاريخي وقياسه على نقوش المسكوكات كان كاشفًا عن قضايا ما زال خلاف المؤرخين حولها قائمًا؛ لغيابهم عن دراسة هذه القضية في إطار الأدلة المادية الأثرية الرسمية، ومن أهمها المسكوكات، ومن أمثلة ذلك القضية المتعلقة بشخصية عبد الله المهدي ودوره في إقامة الدولة الفاطمية وإظهارها وإحياء الفكر المهدوي المرتبط بذلك. ويأتي في السياق مسمى مدينة "المهدية"، وما ورد على مسكوكاته من نقوش تكشف دراستها دراسة واعية في إطار سياق نهج الإمامة عند الشيعة الإسماعيلية عن أن عبد الله الذي نعت بالمهدي في إطار توظيف الفكر المهدوي – إن جاز التعبير – عن أن عبد الله المهدي لم يكن من سلسلة الأئمة الفاطميين، ولا يصح في إطار هذا أن يكون مصدر طعن في نسبهم. كما حاول ذلك بعض المؤرخين القدامى كابن حماد أو المحدثين ممن لم يراجعوا نقوش المسكوكات الفاطمية الشيعية الإسماعيلية ومقارنتها مع غيرها ومراجعة النصوص الأدبية باختلاف مصادرها.

وتعدد القضايا البحثية المهمة التي لم يقتصر بعضها على المضمون ولكن اتسع نطاق مناقشته إلى الشكل الذي ضربت به المسكوكات. ويكفي أن نراجع شكل تنفيذ الكتابات على المسكوكات الفاطمية الإسماعيلية في مصر ومسكوكات البويهيين ومسكوكات الإسماعيلية في كرمان؛ لتعرف أثر الفكر العقائدي الإسماعيلي على هيئة تنفيذ الكتابة، وعلى اختيار نصوص، ووضع هذه النصوص

في دوائر متتالية ترتبط في ترتيبها من المركز إلى الهامش بالفكر الشيعي الإسماعيلي، وهو ما يفتح الباب واسعًا أمام الباحثين – في إطار القياس – لمتابعة هذه القضية وتحديدًا فكرة الشكر الدائري بالفكر الشيعي الإسماعيلي وتطبيقاته على الآثار الإسلامية والشيعة الإسماعيلية وليس فقط على المسكوكات.

اتبع الباحث في كتابه "المهدي والمهدوية" منهجًا علميًا يعتمد في الأساس على المنهج التاريخي بحكم طبيعة الموضوع الذي يتناول امتداد الفكرة طوال مراحل التاريخ الإسلامي وتعمق التراث الإسلامي في تناولها تعمقًا أبرز وجودها في الحضارة الإسلامية بالرغم من وجود ذات الفكرة بالمستوى الشامل العام. كذلك اتبع المنهج الوصفي الدقيق الواعي في معالجته للمسكوكات التي يستند عليها كمعيار لتحقيق أهداف بحثه والدراسة الوصفية بصفة عامة في الدراسات الآثارية إما أن تكون تأسيسًا للبحث أو تكون نتيجة له. وهذا الأمر الأخير يكون في حالات بعينها لا يتحقق فيها لبعض الدراسات المقومات الأساسية لتقديم دراسة وصفية صحيحة في إطار التأثر بدراسة سابقة طرحت طرحًا معينًا في إطار معرفة معينة ثم تبين خطأ هذا الطرح والتحليل مما يستوجب معه تقديم دراسة وصفية جديدة يؤكد البحث سلامتها وتكون بهذا نتيجة له لها مقدمة.

وخبرة الباحث بدراسة القطع النقدية من دنانير ودراهم وفلوس وقراءة نصوصها قراءة صحيحة أدت إلى توظيفها تبعًا لفكرة البحث التوظيف الصحيح الذي أعطاها قيمة مضافة لا شك أنها تزداد مع تقدم الدراسات واتساع المعرفة ومعرفة المزيد من مصادر التراث.

وقد قام الباحث بمسح شامل للدراسات السابقة في ضوء ما توفر له من مصادرها ومراجعها ومظان وجودها، وقد يعيب عنه دراسة هنا أو بحث هناك، ولكن ما أحاط به وما جمعه كان كافيًا لطرح القضية في إطار ما توفر من معرفة. وتبرز أهمية هذه الدراسة أكثر في البعد المتخصص المتعلق بالمسكوكات، ذلك البعد الذي لا يمكن لأي باحث إدراكه إلا بعد أن تتوفر له ما توفر لباحثنا من معرفة ما ورد في المصادر التراثية والدراسات الحديثة، ناهيك عما يتمتع به الباحث من قدرة على تحليل النصوص وفهمها وسبر غورها، وهي ملكة لا تتوفر لكل الباحثين، وتعاني كثير من الدراسات الآثارية الحديثة من نقصها. ولم تتوقف قدرة الباحث عند هذا الحد، ولكنها تمتد إلى تحقيق الربط الواعي المتعمد على المعلومة الفاهم للنص الموظف للقراءة الصحيحة لكل أطراف القضايا المثارة التي تطرح في سياق الكتاب في الفترات الزمنية المتتابعة التي ناقش فيها الباحث قضية المهدي والمهدوية، وفي إطار البعد الجغرافي للعالم الإسلامي وسطًا وشرقًا وغربًا، وهي قدرة في الربط تزداد أهميتها وتقديرًا بلا شك مع اتساع النطاق الزمني الجغرافي.

وتفسير النص ونقده في إطار المعيار الأثري ممثلاً في المسكوكات سمة رئيسة بدت في البحث ابتداءً من اختيار عنوانه إلى خطة فصوله وانتهاءً بنتائجه.

كذلك فإن سهولة أسلوب العرض ووضوحه جعل متن الكتاب في متناول القراءة بكل نوعياتهم سواء من الباحثين أو الدارسين أو القراء العاديين الهواة. فاللغة سلسة سهلة، والفكرة واضحة، والتسلسل المنطقي والموضوعي قائم، وكلها ميزات تضاف إلى الكتاب الذي لا شك أن يفتح بابًا كبيرًا للبحث الآثاري في هذا المجال الفكري العقائدي، ويوسع نطاق الرؤية للبحث والدرس الآثاري على حدٍّ سواء.

ومن الأمور الملفتة للانتباه في كتاب المهدي والمهدوية الجمع بين العرض الشامل في إطار رؤية تلسكوبية والتفصيل الدقيق في إطار نظرة ميكروسكوبية، وهو سياق منهجي نلحظه في عرض القضايا المتعلقة بموضوع المهدي والمهدوية في كل عصر، وفي كل نطاق جغرافي مميز ارتبط بهذا الفكر بسبب أو لآخر. وهذه الرؤية في التناول قد تكون عند بعضهم مثار انتقاد لكن هذا الانتقاد لا يقوى عندما يكون تناول الموضوع جديدًا أصيلاً في أول دراسة شاملة تطرح قضية فكرية عقائدية بهذا المستوى طرحًا يوظف المادة العلمية التراثية والمرجعية الحديثة توظيفًا معماريًا مستندًا إلى دراسة علمية جديدة ومتعمقة للمسكوكات.

وهي الدراسة التي تشكل للمتخصصين في المسكوكات فتحًا جديدًا، وتدفع غيرهم من المتخصصين في فروع الآثار الإسلامية الأخرى والمؤرخين وعلماء الاجتماع وغيرهم إلى إدراك أهمية هذا التناول بمنهجية ومعارف.

وفي إطار المنهج يلاحظ دقة البناء التراكمي المعرفي لفصول الكتاب والنقاط البحثية المطروحة في كل فصل بما ينتهي إلى تحقيق الهدف من هذا الفصل أو ذلك. كذلك يلاحظ دقة استخدام

المصطلح الأثري، وقضية المصطلح الأثري تمثل همًا قائمًا ينقص من قيمة كثير من الدراسات الآثارية وتحتاج إلى معالجة أدواتها لإخراج بحوث مماثلة للبحث الذي تعرض له، الذي تتبع منهجًا واضحًا في استخدام المصطلح في إطار ثقافته وعصره وبيئته.

وفي إطار البعد الشكلي للمنهج نلاحظ الدقة المتناهية في التوثيق العلمي لكل نص أدبي أو نقش على المسكوكات، إذا كان المعول عليه هو النقش أو دراسة الشكل الكلي للقطع إذا ما كان السياق يتطلب ذلك، وهذا التوثيق يكشف عن إحاطة شاملة ومراجعة فعلية لمصادر الدراسة، ويؤكد أمانة الباحث، تلك الأمانة التي تمثل بعدًا أخلاقيًا مهمًا يغيب للأسف أحيانًا عن بعض الدراسات المعاصرة، وتحتاج إلى علاجه، وهو أمر يضفي على الكتاب أهمية باعتباره مثالاً في هذا السياق.

ومن السمات المميزة لهذا الكتاب، تلك المرتبطة بالصياغة اللغوية وأسلوب العرض، وقد وصف فيها الباحث إلى بعد يحقق ما يسعى إلى تحقيقه في مهارة واضحة، ويلاحظ أنها مكتسبة من خلال كثرة ما اطلع عليه ومن تشربه للصياغات المختلفة في المصادر التراثية، وهو أمر يكتسب بالدربة وكثرة الاطلاع، ونلحظ ذلك جيدًا في تماهي صياغته تماهيًا واضحًا مع صياغة نصوص المصادر، وهو التماهي الذي ينتهي إلى صورة واضحة وقراءة مبسطة للنص يستوعبها القارئ في عصرنا دون كلل أو ملل، بل باستمتاع وتذوق.

وإذا كانت الدراسة التي بين أيدينا متكاملة في إطار خطة الباحث التي وضعها ليحقق بها أهداف بحثه التي طرحها في عنوان الكتاب وأقسامه المختلفة، فإن مناقشة نتائج البحث في كل قسم كانت من الأهمية بمكان؛ حيث إن هذه المناقشة كان من شأنها أن تفسر هذه النتائج وترصد محاور مهمة للتقويم في إطار المقارنة. وتوضيحًا لذلك نذكر أن المناقشة كانت من شأنها أن تبين في إطار إحصائي دلالات استخدام نوعيات المسكوكات في توصيل الرسالة الإعلانية والإعلامية لفكرة المهدي، فأي هذه النوعيات في إطار دراسة المسكوكات كان أكثر، وأيها كان أهم ارتباطًا بمضامين النقوش والظروف الاقتصادية والبيئية والثقافية في المناطق التي ضربت فيها هذه المسكوكات التي تخدم هذا الغرض؟

كما أتصور أن دراسة مقارنة بين توظيف الفكرة في العصر الأموي والعباسي كان من شأنه أن يؤشر إلى الاستفادة من الخبرات السابقة، وتوسيع نطاق التوظيف ارتباطًا بأحداث العصر وظروفه. ويمكن أن تمتد الدراسة المقارنة إلى كيفية التوظيف في النطاق المذهبي العام السني والشيعي أو المذهبي الخاص بتفريعاته كالإسماعيلية والاثنا عشرية والعلويين.

كذلك فإن مناطق الانتشار في الإطارين الجغرافي والزمني له دلالاته المرتبطة بطبيعة الفكرة ذاتها وصلاحية تناولها في كل عصر، بل وفي بيئات ومجتمعات أخرى، فهي فكرة ترتبط بالبعد الإنساني المتشوق إلى تحقيق العدل على يد المهدي المنتظر في آخر الزمان كما هو منطلق الفكرة وأساسها.

وخلاصة هذه القراءة تنتهي إلى أن هذا الكتاب "المهدي والمهدوية على المسكوكات الإسلامية دراسة تاريخية لأثر فكرة المهدي المنتظر على النقود في العصر الإسلامي" للأستاذ الدكتور عاطف منصور يعتبر فتحًا كبيرًا في مجال الدراسات في الآثار الإسلامية بصفة عامة والمسكوكات الإسلامية على وجه خاص؛ حيث يطرح الرؤية الصحيحة لدراسة الآثار الإسلامية في إطار ثقافتها وبيئتها مع إدراك شامل بأهمية المكتبة التراثية والعربية والإسلامية في هذا المجال. ومن ثم فإنه تبرز هذه القيمة التي تمثل لبنة مهمة في أساس التغيير والتطوير المطلوب في الدراسات الأثرية الإسلامية.

وفي المستوى التخصصي يمثل هذا الكتاب كما اتضح من المراجعة سفرًا مهمًا لمناقشة قضية المهدي والمهدوية يستفيد منه الباحثون لإعادة تقويم وتقييم الدراسات السابقة في هذا المجال، والتي أغفلت المسكوكات الإسلامية كمصدر أساسي معياري في هذا المجال. ويوجه الدراسات في المستقبل لتناول هذا الموضوع أو ما يناظره توجيهًا جديدًا من الناحية المعرفية والمنهجية.